الافتتاحيّة بقلم المدير العام للامن العام
اللواء حسن شقير

لاوون يهزم العدوان بالسلام

تجاوزت زيارة قداسة الحبر الاعظم البابا لاوون الرابع عشر للبنان حدود الديبلوماسية والتهنئة والوقوف على الاطلال، لتتحوّل الى حدث مفصلي يضع لبنان امام امتحان جديد؛ هل يستطيع هذا الوطن المنهك ان يلتقط فرصة استثنائية يعيد من خلالها اكتشاف رسالته؟ أم سيترك اللحظة تمر كما مر كثير من العلامات والمنعطفات، بلا اثر ولا تبدّل في المسار؟

العلاقة التي يحملها البابا تجاه لبنان لم تولد من قاعات السياسة، ولا من تقارير الكنائس ولا من حسابات الشرق والغرب، بل من جذور لاهوتية عميقة ترى في لبنان اكثر من خارطة وكيان. كان لاوون الرابع عشر، منذ سنوات تكوينه الاولى، يرى في هذا البلد انعكاساً لصورة الوحي؛ ارض الارز كرمز للمجد الالهي، الجبال كتجسيد للثبات الروحي، والعيش المشترك كجوهر لرسالة لا تزال البشرية تبحث عنها. لم يتعامل مع لبنان بوصفه دولة من دول الشرق، بل بوصفه امتدادا لمعنى متجذر في الكتاب المقدس، حيث تتداخل الرموز بالوقائع، وحيث يصبح فهم المسيح ممكنا عبر فهم هذه البلاد، وفهم هذه البلاد ممكناً عبر النظر الى المسيح ذاته.

هذه العلاقة لم تكن نظرية. فمنذ العام 2019، حين عصف بلبنان ما عصف به، كان لاوون الرابع عشر جزءا من قراءة دقيقة لازمات الكنيسة والمجتمع. عبر موقعه في الادارة السينودوسية وتدخله في الملفات الكنسية المشرقية، كان مطلعا على تفاصيل تعبّر بوضوح عن عمق ازمة لبنان؛ مؤسسات تحتاج الى اعادة بناء، طوائف تبحث عن دور، واساقفة ينقلون بقلق نبض الناس ووجعهم. لذلك، لم يأتِ البابا ليلتقط صورة او يقدم كلمات تعزية. جاء ليواجه الحقيقة، ويقف وسط بلد يعرفه كما يعرف خارطة نفسه؛ بلد يملك مخزونا هائلاً من الروح، لكنه يقترب من لحظة ضياع قد تكون الاخطر في تاريخه الحديث.

لذلك، فإن مَن يظن ان لاوون الرابع عشر امتداد لأي سياسة خارجية أو أي نفوذ لن يدوم، يجهل تماما حقيقة الرجل. فهو البابا الذي واجه في بلاده سياسات لا تشبه انسانيته ولا تعليم الكنيسة. هو الذي وقف في وجه خطاب الكراهية، وواجه مؤسسات كاثوليكية حاولت تبرير سياسات غير انسانية. وهو الذي لم يتردد في وصف ما يجري في غزة بكلمة كبرى تهز الساحات الديبلوماسية "احتمال الابادة". قالها وهو يعرف كلفتها السياسية، لكنه قالها لأنها الحقيقة التي لا يمكن اخفاؤها. ومن هذا الوجدان نفسه انطلق نحو لبنان، من وجدان يبحث عن العدالة قبل اي حسابات، وعن حماية الانسان قبل اي توازنات.

زيارة البابا حملت رسالة واضحة؛ ان لبنان هو ركن الشرق، بل حجر زاوية في مستقبل المنطقة. هو نموذج للتعددية وللقدرة على حماية ما تبقى من حضور مسيحي مشرقي يشكل جزءا من هوية المنطقة. لذلك، فإن صوته اتى مرتفعا؛ لا يمكن لأي مشروع جيوسياسي ان يُبنى على حساب لبنان، ولا يمكن للمسيحيين وللمسلمين ان يتحولوا الى قلقين او خائفين في ارضهم، ولا يمكن لسقوط لبنان ان يكون مجرد سقوط دولة، بل سقوط فكرة ربما لا تعود لها نهضة.

وكانت وقفته في مرفأ بيروت اللحظة الاكثر تعبيرا. فليس المكان جرحا وطنيا كبيرا فحسب، بل يشبه في عمقه موقع الالم في الايمان المسيحي، حيث الصمت يقول اكثر من الخطب، وحيث الانتظار هو انتظار للعدالة قبل الشفاء. صمت البابا هناك كان رسالة مزدوجة؛ الى العالم الذي نسي، والى الداخل الذي تعب، بأن الحقيقة لا تُدفن تحت الركام، وان العدالة ليست ترفاً بل شرطا لقيام وطن.

لكن الحدث الابرز في الزيارة كان اللقاء بصيغة صلاة مشتركة تجمع رؤساء الطوائف بروحية "اسيزي". هذا المشهد ابعد من دعاء، بل شكّل اختبارا لقدرة اللبنانيين على تجاوز مساحة التعايش النظري نحو اختبار حقيقي؛ هل يمكنهم الوقوف معا امام الله كما يقفون معا على ارض واحدة؟ وهل يستطيع هذا النموذج، ان نجح، ان يتحوّل الى رسالة انقاذ للعالم لا للبنان وحده؟

هنا يكمن لبّ الامتحان. فالبابا لا يريد ان يمنح لبنان حلولا مستحيلة، بل يريد ان يعيد اليه وعي رسالته. اراد ان يقول للبنانيين ان العيش المشترك ليس شعارا بل قدرا، وان الهوية ليست صراعا على النفوذ بل اتفاقا على معنى الوطن، وان لبنان لا يُحمى الا بالسلام، لا بالعدوان، ولا بالغلبة، ولا بالعزل، بل بالقدرة على جعل الاختلاف قيمة لا تهديدا.

يبقى السؤال: هل يلتقط لبنان هذه اللحظة؟ هل تستعيد نخبته السياسية وعيها، وقياداته الروحية دورها، وشعبه ايمانه بنفسه؟ أم يمر البابا في سماء هذا الشرق تاركا وراءه صدى لا يجد من يصغي اليه؟ انه امتحان جديد. امتحان للبنان اولا... ولقدرته على الانتصار بالسلام قبل ان يسقط بالعدوان.